الأديب

عزت الغزاوي

رحلة الفلسطينيّ في أدب الغزّاوي

موسى حجيرات*

الأديب عزَّت الغزَّاوي[1]

حياته ونشأته

عزَّت الغزَّاوي هو أديب فلسطينيّ اشتهر بكونه كاتبًا روائيًّا بالرَّغم من أنَّه أبدع في مجال كتابة القصَّة والمقالة والمداخلات النَّقديَّة والأدبيَّة. كما أبدع في مجال التَّرجمة أيضًا. ولد في قرية دير الغصون القريبة من طولكرم عام 1951، وهو ابنٌ لعائلة هاجرت من بلدة قاقون في فلسطين المحتلَّة عام 1948. درس المرحلة الإعداديَّة في قريته، أمَّا المرحلة الثَّانوية ففي مدرسة عتيل الثَّانويَّة. تلقَّى تعليمه الأكاديمي في الجامعة الأردنيَّة في عمَّان، حيث درس الأدب الإنجليزي فحصل على البكالوريوس. عمل مدرِّسًا في مدارس طولكرم لفترة طويلة، وبعدها تابع دراسة الماجستير في جامعة ساوث داكوثا الأمريكيَّة، حتَّى حصل على الدَّرجة. ومنذ ذٰلك الحين عمل محاضرًا في جامعة بير زيت وحتَّى رحيله.

الغزَّاوي فلسطينيٌّ حرٌّ متشبثٌ بآرائه ومواقفه تجاه قضيَّته ووطنه. عانى كغيره من الاحتلال وسلطته، واعتقل لمدَّة سنتين خلال الانتفاضة الأولى بسبب مواقفه المناهضة للاحتلال. وزادت معاناته بعد فقد ابنه الذي استشهد عام 1993. وأثَّر ذٰلك في نفسه ونفسيَّته وحياته. ولٰكنَّه ثابر وصمد وكتب وأثَّر، وامتاز بإبداعه الرِّوائي؛ فحصل على "جائزة فلسطين" في الرِّواية، كما حصل على عدَّة جوائز أخرى كـ"جائزة الحرِّيَّة" من النَّرويج، و"جائزة زخاروف للسَّلام" من الاتِّحاد الأوروبي.

يعتبر من مؤسِّسي اتِّحاد الكُتَّاب الفلسطينيِّين، وكان عضوًا في هيئاته الإداريَّة حتَّى انتخب رئيسًا للاتِّحاد لدورتين متتاليتين، وعيِّن، أيضًا وكيلًا لوزارة الثَّقافة والإعلام.

انتخب أمينًا عامًّا للتَّجمُّع الوطني لأسر شهداء فلسطين.

---

* باحث في مركز الدراسات المعاصرة.

1 شاهين، أحمد. موسوعة كُتَّاب فلسطين في القرن العشرين. غزَّة: المركز القومي الفلسطيني للدّراسات والتّوثيق، 2000.

آثـاره

من رواياته "الحواف" (1993)، و"جبل نبّو" (1995)، و"عبد الله التّلالي" (1998)، و"الخطوات" (2000)، و"الحلّاج يأتي في اللّيل" (2003). كما كتب "نحو رؤية نقديَّة حديثة للأدب الفلسطيني" 1989)، و"رسائل لم تصل بعد" (1991)، و"جنَّة مضيئة" (2001)، و"ما قاله الرُّواة: جبل نبُّو، الحوّاف، الخطوات" (2001)، ومجموعة قصصيَّة بعنوان "سجينة" (1986). وله كتاب "تأمُّلات نقديَّة في نماذج من الأدب الفلسطيني المعاصر"، إصدار دار أوغاريت في رام الله عام 2001.

وقد ترجمت بعض أعماله (رسائل لم تصل بعد، جبل نبّو، عبد الله التّلالي، الخطوات) إلى لغات عالميَّة. أمَّا هو فقد ترجم روايات ونصوصًا وحكايات من الإنجليزيَّة إلى العربيَّة. ومن أعماله في هٰذا المجال: "دون كاولوس" (رواية للكاتب تورفال ستين - 1998)، و"لتكن الفطائر من نصيب الفقراء" (نصٌّ فلسفيٌّ للكاتب روبرت تومسون - 2000)، و"تاتشي" (حكاية للأطفال لهيلجا إريكسون- 2001)، و"الأساطير المكوِّنة لإسرائيل" (للمؤرِّخ الإسرائيلي زئيف ستيرنهل - 2001). كما قام بتحرير نصوص، وأبحاث ودراسات أخرى. توفِّي في ربيع 2003 إثر نوبة قلبيَّة حادَّة.

بعض ما قيل عنه

قال محمد البوجي: "لقد أثرى (عزَّت الغزَّاوي) الحركة الأدبيَّة بأعمال متعدِّدة ومتنوِّعة، وبفكر ديمقراطيٍّ حرٍّ".[2]

وقال شاكر فريد حسن: "بموته خسرت الحركة الأدبيَّة والحياة الثَّقافيَّة الفلسطينيَّة عَلَمًا من أعلامها البارزين النَّاشطين ورمزًا من رموزها الثَّقافيَّة التي تركت أثرًا بالغًا وعميقًا على تطوُّر هٰذه الحركة ومسارها.

إنَّ حياته قصيرة، قضاها في إنهاض الثَّقافة الوطنيَّة وإغناء المشهد الثَّقافي الفلسطيني بإبداعه الرِّوائي والقصصي وكتاباته الأدبيَّة ومطارحاته النَّقديَّة".

2 محمَّد البوجي، عزَّت الغزَّاوي، العلامة المأمولة، دنيا الرَّأي، 3/7/2011.

وبعد موته رثاه بالقول: "عرفنا عزَّت الغزّاوي أديبًا متنوّع العطاء، وإنسانًا هادئًا ورزينًا صاحب قيم ومواقف، عشق الحياة وآمن بالمستقبل وجسَّد فلسطين على الورق، وبلور إبداعها المقاوم الأصيل، متشبّثًا بالهويَّة الوطنيَّة والطَّبقيَّة، وظلَّ حريصًا على التَّفرُّد والتَّميُّز في نصوصه ونتاجاته القصصيَّة والرِّوائيَّة والنَّقديَّة، وجاءت لغته غنيَّة وحسَّاسة، وإبداعاته وإشراقاته مطبوعة بختم فنَّان مبدع".[3]

رحلة الفلسطيني في أدب الغزّاوي

لقد كتب الأدباء الفلسطينيُّون وغيرهم، شعرًا ونثرًا، عن الفلسطيني المهجَّر، البعيد عن دياره والسَّاكن في منفاه. وكتبوا عن تشريده وتهجيره، وعن معاناته وعذابه وغربته، وعن أحلامه بالعودة إلى الوطن. فعلى سبيل المثال لا الحصر، نذكر غسَّان كَنَفاني، وجبرا إبراهيم جبرا، وسحر خليفة، وحسين البرغوثي، ومن الشعراء سميح القاسم، ومحمود درويش، وتوفيق زيَّاد.

كما كتبوا عن الوطن ورموزه وإيحاءاته واعتباراته وقيمته والحنين إليه وعن أحلام العودة. وكذلك كتبوا عن المنفى وتعريفاته وازدواجيَّة الحياة فيه وكلِّ ما يطويه من ظلم وبؤس ومعاناة. ولكنَّ أبرز ما في الكتابات، رحلة العذاب والظُّلم والتَّشتُّت الجسدي بين مطارات العالم حتى المنفى المؤقَّت إلى المنفى الدَّائم. والتَّشتُّت الفكري وعدم الاستقرار واليأس والإحباط وعدم الطُّمأنينة النَّفسيَّة.

فرحلة الفلسطيني التَّقليديَّة هي الرِّحلة التي بدأ التَّخوُّف من الشُّروع فيها قبل إعلان دولة إسرائيل في أرض فلسطين في أيَّار 1948. ومنذئذٍ بدأ معظم الفلسطينيّين يغادرون بيوتهم ومساكنهم في مدنهم وقراهم ومضاربهم، إلى أماكن أخرى في فلسطين وجنوب لبنان وإلى جنوبي غرب سوريَّا وإلى الأردن ومصر.[4]

3 حسن، شاكر فريد. لذكرى الرِّوائي الفلسطيني عزَّت الغزَّاوي. الحوار المتمدِّن، 2011. عدد 3335.

4 الجرَّار، حسني أدهم. نكبة فلسطين عام 1947- 1948: مؤامرات وتضحيات. عمَّان: دار الفرقان، 1995.

هنا برز مفهوم **الوطن** الذي صار بالنِّسبة للفلسطينيّين كغيرهم أيضًا، مصدر الاستقرار والسَّعادة والرَّاحة النَّفسيَّة والهدوء والاطمئنان، وذلك بعد أن عانوا ما عانوا من تركه، واللُّجوء إلى جغرافيَّة أخرى.

ومن هٰذا الوطن المغادَر يسير الفلسطيني **برحلة** البؤس والشَّقاء، والتَّعب والإرهاق، والتَّشتُّت والتَّشرُّد حتَّى اللُّجوء إلى مكان جديد بجغرافيَّته ومفهومه وأهميَّته والعلاقة معه، والذي يعتبره الغزَّاوي، كغيره، **منفًى** وفيه خلقت مفاهيم الهجرة والغربة والنَّفي واللُّجوء وكلُّها تصف المكان.

أمَّا رحلة الفلسطيني في أدب الغزَّاوي فهي رحلة من نوع آخر، وإن ورد في رواياته إطار الرحلة التَّقليديَّة، ولٰكنَّه صاغها صياغة أخرى، وأودعها قالبًا آخر بعد أن ناقشها وفلسفها، وعرضها بأسلوبه الخاصّ. فحين يعرض رواياته يظنُّ القارئ أنَّه يتحدَّث عن البطل ويصفه بالصِّفات التي يختارها له ويتدخَّل في مشاعره وعواطفه فيعبِّر، مثلًا، عنها بلسانه. وبطله، هٰذا، يمثِّل الفلسطيني المشرَّد بالرِّحلة إلى المجهول والعائش في المنفى، والذي يحلم بالعودة إلى الوطن.

أو أنَّ الغزَّاوي استطاع بمقدرته الفذَّة، وتمكُّنه من كتابة الرِّواية وحياكتها أن يحرِّك شخوصه، وخاصَّة بطله، وفق أهوائه وميوله وأفكاره وما يريد. أم أنَّه بلغ من الدِّقَّة حتَّى كأنَّه يتحدَّث عن ذاته وأنَّ ما يكتبه سردًا ذاتيًّا أو معلومات بيوغرافيَّة.[5]

أمَّا في هٰذه الدِّراسة فالحديث عن رحلة الفلسطيني في روايات الحواف، جبل نبّو، عبدالله التّلالي والخطوات. فالرِّحلة، مثلًا، في رواية الحواف تبدأ من قرية المجدل، فعمَّان إلى اليرموك، فتلّ الزَّعتر، فبيروت، فعودة إلى الوطن. وفي رواية جبل نبّو فالرِّحلة تبدأ من السَّدير، المكان المتخيَّل الذي يفترض أن يكون في فلسطين الوطن، وفيه تدور أحداث الرِّواية ومن هناك إلى بُصرى المنفى.

5 أبو مطر، أحمد. قراءة نقديَّة في أعمال عزَّت الغزَّاوي الرِّوائيَّة كنموذج للرِّواية الفلسطينيَّة الجديدة. إضاءات 6 (1999): 1-6.

أمَّا في رواية عبد الله التّلالي فبداية الرحلة من سجن جاويد قريبًا من ثملة مسقط رأسه و"الجزيرة في الوطن" إلى باريس "المنفى". وفي رواية الخطوات تبدأ رحلة الفلسطيني من صفد، إلى الجافنة ثمَّ يرتحل إلى عمَّان فبيروت فأوراسيا.

إنَّ المتمعِّن في مسار الرحلة في كلِّ الرِّوايات المذكورة، يجد أنَّه يبدأ في جميعها من مكان معيَّن في فلسطين، حقيقيًّا أم مفترضًا، وهو عادة مسقط رأس البطل إلى مكان خارج الوطن وهو المنفى، وأحيانًا إلى أمكنة عدَّة وليس مكانًا واحدًا ممَّا يزيد من المعاناة والعذاب.[6]

الوطن

لقد مهَّد الغزّاوي للحديث عن رحلة بطله في رواية الخطوات،[7] مثلًا، وهو ما زال في صفد مسقط رأسه وتحدَّث عنها باقتضاب، وعلى ألسنة أخرى كالرَّحالة التُّركي أوليا محمَّد ظلّي بن درويش عام 1671.

"من قرية ميرون لاحت لنا صفد حمامة بيضاء كأنَّها تتحفَّز للطَّيران" (الخطوات: ص 52).

6 عوَّد الغزّاوي قارئيه على الإتيان بأسماء مفترضة لأمكنة في رواياته ولها دلالات خاصَّة، كالجافنة في الخطوات والسَّدير في جبل نبّو وثملة في رواية عبد الله التّلالي.

7 الغزّاوي، عزَّت. الخطوات، رام الله: دار الشُّروق للنَّشر والتَّوزيع، 2000؛ رواية الخطوات هي استمراريَّة زمنيَّة لرواياته الأخرى وتغطي فترة ما بعد اتفاقيَّات أوسلو. تظهر فيها، أيضًا دائرة الوطن والمنفى. ومن خلال دراسة روايات الغزّاوي يتبيَّن أنَّه يظهر فيها تقدمَّه وتجربته وخبرته التي تزداد في كل رواية. لهٰذا فالخطوات تمثِّل قمَّة إبداعه وتجربته. تتشابه الخطوات مع الرِّوايات الأخرى من حيث المضمون، ففيها تظهر، ككلِّ الروايات الأخرى، رحلة الفلسطيني من وطنه إلى منفاه. كما تظهر بعض المركَّبات، أيضًا كتداخل الأمكنة والأزمنة والشَّخصيَّات، وتضمين الأساطير، وتغييب البطل، ولغة السَّرد الشَّاعريَّة التي تظهر خصوصيَّات الغزاوي. وهٰكذا، فانطلاقًا من هٰذه الأمور، تشكِّل الخطوات في الدِّراسة نموذجًا لتحليل رحلة الفلسطيني في أدب الغزّاوي. وهناك أمثلة للاستعانة، أحيانًا من روايات أخرى، خاصَّة الحواف وجبل نبّو وعبد الله التّلالي.

فهو يعتبرها "المكان الأوَّل الذي تعدَّدت بعده الأمكنة" (الخطوات: ص 20).

ويستطرد في وصف المكان الذي يعتبره فيما بعد وطنًا ويقول:

"المكان فكرة حين لا يتغلغل إلى مسامات الجسد" (الخطوات: ص 20).

ولٰكنَّه يتحدَّث عن قرية (الجافنة) التي جاء إليها من صفد وكأنَّها وطن أيضًا، وهٰذا ما يمكن اعتباره تجديدًا للغزَّاوي في مفهوم الوطن إذ لم يبق مسقط الرَّأس فقط.

وحين يرى الغزَّاوي نفسه في شخصيَّة بطله يعتبر ذٰلك بوحًا ذاتيًّا، فيتحدَّث عن الجافنة القرية المتخيَّلة التي تحاكي صفاتها صفات دير الغصون، أو أنَّها مكان ذكريات طفولة اليوسفي، لذا حين يتحدَّث عن حبِّه للجافنة:

"الصَّوت القادم من هناك، من الجافنة التي أحبُّها" (الخطوات: ص 57)، إنَّما يتحدَّث عن وطنه وعلاقته به.

فالجافنة، إذنْ، هي وطن اليوسفي وهي "كتاب مفتوح بعد غياب... إنَّها المكان الثَّاني في حياتي بعد صفد" (الخطوات: ص 20).

ويعتبرها أوَّل الدُّنيا، ممَّا يدلُّ على أهميَّتها العظمى بالنِّسبة له.

"المسافة بين أوراسيا والجافنة رحلة من أوَّل الدُّنيا إلى آخرها" (الخطوات: ص 32).

وحين يتحدَّث عن الوطن بشكل عامٍّ نجد أنَّ له خصوصيَّة في فكرته عن هٰذا الوطن، وله فلسفته الخاصَّة التي هي أقرب ما تكون إلى الواقع. فالوطن بالنسبة له، مفهوم خاضع للنِّقاش، ولو أوصله ذٰلك إلى اعتراض الفكر التَّقليدي ومفهوم الوطن فيه، واعتبر أنَّ النِّقاش فيه أمر مشروع.

"لٰكنَّ السُّؤال عن معنى الوطن يبقى مشروعًا، إذ ما هو المبرر الأخلاقي للتَّنازل عن حقِّنا التَّاريخي في فلسطين الكاملة" (الخطوات: ص 52).[8]

8 سلمان، نبيل. "التَّجربة الرِّوائيَّة للكاتب الفلسطيني عزَّت الغزَّاوي". الأسبوع الأدبي، 897 (2004): 80-86.

لم يكن الغزّاوي أوّل من طرح هٰذه الفكرة، ولٰكنّه جدّد النّظرة إلى الوطن والمنفى. واتّخذ له فلسفة، مسارها وسطيٌّ. وبذٰلك ابتعد عن النّظرة التّقليديّة للوطن والمنفى.

إنّ الغزّاوي ما زال ينظر إلى الوطن بأنّ له مهابة وقدسيّة، وأنّه ما زال مكان الانتماء، وله يحنُّ كلُّ مغترب مهما طال به الزّمن. ولٰكنّه يعارض النّظرة إلى الوطن وكأنّه كلٌّ لا يتجزّأ، وشاغل عن كلّ أمر حياتيٍّ حتّى وإن كان ضروريًّا. ويعارض تهويل معنى الوطن بحيث لا يُسمح أن يكون موضوعًا للنّقاش، ولو بموضوعيّة تامّة. ولا ينظر بعين الرّضا إلى فداء الوطن التّقليدي، وما يحدث وكأنّه الزّجُّ بالشّباب إلى الموت، واعتبار ذٰلك في سبيل الوطن.

لقد نظر بواقعيّة وموضوعيّة للوطن بأن يبقى هدف كلّ مغترب يسعى للعودة إليه، ويحنُّ له، ويذكره ولٰكن كلُّ ذٰلك بتخطيط، ودراسة مبنيّة على علم ودراية تامّة بتقلُّبات الظُّروف، والتّغيير الذي يفرضه الزّمن.

أمّا ما يتعلّق بالمنفى، فكذٰلك يجب ألّا ينظر إليه بشؤم وجمود، وكأنّه فترة عابرة مهما طال بها الزّمان. لقد عارض وقف الحياة في المنفى وتعطيل كلّ شيء بغية العمل للعودة، إنّما طالب باستغلال المنفى، أيضًا للعيش والتّقدُّم والتّطوُّر والاستمراريّة إلى جانب العمل للعودة إلى الوطن.

وهٰكذا، فاستحداث الغزّاوي هو ربّما يكون اتّخاذ سبيل التّوازي بين استمراريّة الحياة في المنفى، والعمل والتّخطيط للعودة إلى الوطن.

لذا فالغزّاوي بعد أن أجاز للفلسطيني نقاش معنى الوطن أصبح يتحدّث عنه بحريّة تامّة غير آبه للمعنى الرُّوحي له الذي دخل كل نفس فلسطينيّة مهاجرة، وكلّ فكر وذاكرة، ومكانه الضّمير. وغير مكترث لفكرة الوطن لدى الشّباب الفلسطينيّين الذين يفدونه بأنفسهم، ويموتون من أجله في عمليّات فدائيّة متعدّدة، ويعرفون أنّهم إنّما يعبرون للموت، ولٰكن اعتقادًا منهم أنّ كلّ عمليّة فدائيّة، ومهما كانت نتائجها، توسّع الثّغرة في حدود عدوّهم ويقترب منهم الوطن المفقود.

"هٰؤلاء يعبرون إلى الوطن ويعلمون أنَّهم يموتون من أجله. إنَّهم لا يفكِّرون بالمال أو المنصب. يظنُّون أنَّهم يتقدَّمون خطوة صغيرة من الهدف وذٰلك كافٍ بالنِّسبة لهم" (الخطوات: ص 40)

إنَّ الغزَّاوي لا يعارض فكرة فداء الوطن، وفكرة التَّقدُّم منه، ولو بخطوة واحدة، ولٰكنَّه يعارض الوسيلة المتَّبعة لذٰلك. إنَّه يلمّح بأنَّه يؤيّد وبحزم التَّخطيط لكلِّ خطوة تقرِّب من الوطن، وتراعى فيها التَّغييرات التي حدثت والظُّروف الحاليَّة.

ويقول بعد ذٰلك، إنَّ فكرة الوطن تغيَّرت حين تعامل الفلسطينيُّون مع المنفى أنَّه أمر نهائي، وحين عرفوا أنَّ الحياة يجب أن تستمرَّ هناك، فلا يمكن انقطاع الحياة وانتظار تحرير الوطن الذي بدأت فترة احتلاله تطول وتطول، حتَّى كاد عامل الزَّمن يضيع؛ فيتحدَّث الكبار عنه عبر ذاكرتهم الفلسطينيَّة.

"هٰؤلاء الكبار تحدَّثوا وكأنَّ عامل الزَّمن مفقود. انتحبوا لمأساة حدثت يوم أمس" (الخطوات: ص 30)

وهنا يبرز رأيه جليًّا حين يتساءل:

"ما الفائدة إن كانت هٰذه الذَّاكرة بوَّابة إلى الماضي فقط، ولن تقودنا إلى قراءة جديدة وحقيقيَّة لتاريخنا!" (الخطوات: ص 30).

وهٰذا يعني أنَّ النَّظرة للنَّكبة الفلسطينيَّة والمعاناة لا يمكن أن تبقى نظرة عاطفيَّة خياليَّة غير قابلة للُّجوء إلى الواقع. وأن يحلم الفلسطيني دائمًا بالعودة لوطن ابتعد عنه منذ مدَّة، ويعجز عن العودة إليه، ولو تعاطف معه كلُّ العالم. لا يمكن أن يعيش حياته حالمًا متخيّلًا لأنَّ الزَّمن يمرُّ والأيَّام تتسارع. لا يمكن أن يبكي على مصيبته استعطافًا للآخرين، وألَّا يفعل ما قد يساهم في حلِّ مشكلة حياته.

ثمَّ إنَّ مشكلته لم تبق وطنه فحسب، إنَّما لجوءه ومنفاه وعلاقته بالآخرين. وكذٰلك أصبحت حياة أبنائه، أبناء المنفى، تختلف عن حياته هو، فإن اعتبر مكانه الحالي منفى، فهو بالنِّسبة لهم وطنٌ على اعتبار أنَّ الوطن مسقط الرأس وذكريات الطُّفولة التي تحتويها

الذَّاكرة وبواسطتها يحنُّ إليه. لذا هناك بون شاسع بين ما يفكِّر ويفكرون ويحلم ويحلمون. فإن كان يعاني الغربة لابتعاده عن وطنه الذي هو مسقط رأسه وفيه ذكريات طفولته، فكيف سيزجُّ بأبنائه إلى الذَّهاب إلى وطن ليس لهم، وليس مسقط رأسهم، وليس فيه ذكريات طفولتهم. أليسوا سيعانون كما يعاني الآن؟

ثمّ إنَّ دافع العودة إلى الوطن مختلف بين الآباء الفلسطينيّين المتزوّجين في المنفى وأبنائهم وزوجاتهم. فالفلسطيني المنفي إذا راودته فكرة العودة، سيكون بذلك يسعى لتحقيق حلمه الذي طالما حلم به، وإن تحقَّق هٰذا الحلم سيكون سعيدًا بعودته إلى وطنه مسقط رأسه وذكريات طفولته.

أمّا بالنِّسبة لزوجته وأطفاله فإنَّهم لا يعودون إنَّما يغادرون وطنهم ومسقط رأسهم وذكريات طفولتهم إلى وطن آخر لا يعني لهم عاطفيًّا أيَّ شيء سوى تضامن الزَّوجة مع زوجها والأبناء مع أبيهم. وهٰكذا فالوطن لدى اليوسُفي في الخطوات، مثلًا، ليس هو الوطن بالنِّسبة لزوجته مايا وابنته نتاشا.

فهو يتساءل:

"أين تقع الجافنة على خارطة زوجتي مايا وابنتي نتاشا؟" (الخطوات: ص 30).

ولٰكن بالنِّسبة لليوسفي نفسه فالجافنة هي:

"المكان الوحيد الذي لم تلوِّثه حركة الشُّخوص والمنافي ولحظات الضَّعف" (الخطوات: ص 57).

من هٰذه الأمثلة نستدلُّ أنَّ الغزَّاوي يعرض موقف الآباء والأجداد، ويقارنه بالجيل الجديد. فربَّما ينتقد أبناء هٰذا الجيل، وبحكم كونه من الجيل المهاجر المنفي عن وطنه. ولٰكنَّه يتعاطف معهم حيث يبدو أنَّ شعورهم وما يفكِّرون به موضوعي ومنطقي.

وهٰكذا فعلاقة الفلسطينيّين أبناء المنفى بوطنهم هي علاقة مفروضة من قبل آبائهم، فهم يسعون لربطهم بوطن أهلهم وأقربائهم ولٰكنَّه ليس بوطنهم، وهم يحاولون أن يدفعوا بهم إلى الحلم بالعودة كما يحلمون، وأن يسعدوا بالتَّفكير بالوطن كما يسعدون، وأن يبكوا

استعطافًا للآخر من دول عظمى، وشرعيَّة دوليَّة، وجمعيَّات حقوق الإنسان، وكل من بيده قوَّة للتَّعاطف معهم.

يريدون أن يموضعوا العمليَّات الفدائيَّة، ويشرعنوا الموت في سبيل الوطن، ووقف الحياة في المنفى انتظارًا لتحرير الوطن. ولٰكنَّ الأمر صعب جدًّا، فأبناء المنفى لا يعتبرونه كذٰلك؛ فيتساءلون، إذنْ، عن علاقتهم بوطن أهلهم الذي يكون أشبه بالأسطورة.

"لا بدَّ أنَّك تذكر ابنتي الكبرى "نرمين" التي طوت أفكارًا حالمة عن الوطن الأسطورة" (الخطوات: ص 51). لذا فالوطن كما يقول اليوسفي "أصبح حلمًا جميلًا غير قابل للتحقُّق" (الخطوات: ص 30).

أمَّا مفهوم الوطن فقد تغيَّر أيضًا من حيث الجغرافية والمساحة، فوطن الذِّكريات ومسقط الرَّأس تغيَّر إلى وطن تحدِّده المواثيق الدَّوليَّة المبرمة مع قادة الشَّعب، وليس مع أبناء الشعب البسطاء، الحالمين بالعودة إلى الوطن.

فقد غيَّرت اتِّفاقيَّة أوسلو، مثلًا، معنى الوطن فلم يعد مسقط الرَّأس. فـ "أبو الرُّوس"، مثلًا، عاد بعد أوسلو إلى غزَّة ومسقط رأسه جنين. فهل عودته إلى غزَّة هي عودته إلى الوطن أم هل تحقَّق حلم العودة؟

لا... إنَّه ما زال يحنُّ إلى جنين:

"أتوق إلى قضاء عدَّة أيَّام في جنين مدينتي" (الخطوات: ص 51).

فما زال مغتربًا وما زال بعيدًا عن وطنه.

وكذٰلك غيَّرت اتفاقيَّة أوسلو مساحة الوطن، فالوطن الفلسطيني الكامل لم يعد كذٰلك إنَّما جعلته ما احتل منه عام 1967 وليس كاملًا أيضًا، والحجَّة أنَّ هٰذه حلول مرحليَّة، فغزَّة أريحا أوَّلًا، وسلطة وطنيَّة فلسطينيَّة قائمة على ربع مساحة ما احتل عام 1967 ودولتان لشعبين. ولٰكنَّ الواقع غير ذٰلك فبالنِّسبة للآباء الفلسطينيِّين في المنفى، فلا يمكن أن يتحوَّل الوطن إلى غزَّة، وما انسحب منه الجيش الإسرائيلي.

فيتساءل الغزّاوي بعد أوسلو على لسان نرمين ابنة أبي الرُّوس الكبرى:

"إن كان الوطن يعني بالنِّسبة لي الآن غزَّة والمناطق التي غادرها الجيش الإسرائيلي من الضفة الغربيّة" (الخطوات: ص 52-51).

أمَّا قضيَّة العودة للوطن، فطرحها الغزّاوي، أيضًا، على لسان بطله للنِّقاش، فهي لم تعد القضيَّة الرَّهيبة التي لا يمكن للفلسطيني سوى الحلم بها، ومحاولة تنفيذها حتَّى وإن كلَّف الأمر الموت ونهاية الحياة. فالفدائيُّون الذين دخلوا شمال فلسطين، واشتبكوا مع الجيش الإسرائيلي، وماتوا في هٰذه العمليَّات الفدائيَّة إنَّما أرادوا الموت من أجل الوطن، والعودة إليه، ولو عودة مؤقَّتة.

فهل بعد هٰذه الفترة من الزَّمن لم يتحوَّلوا إلَّا إلى إحصائيَّات رقميَّة؟، هل موت هٰؤلاء حقًّا سارع في طريق العودة وتحقيق حلم العودة؟

لقد علم الغزّاوي أنّ العودة إلى الوطن لم تعد بالأمر المقدَّس الذي يجب السَّعي الى تحقيقه بكلِّ ثمن، مبرِّرًا ذٰلك بأسباب كثيرة كاستمرار الحياة في المنفى.

"ثمَّة نتائج طبيعيَّة لاستمرار الحياة حتَّى في المنفى. عليك أن تحبَّ وتتزوَّج، وتنجب الأطفال" (الخطوات: ص 31-30)، و"إذ أنَّ هناك حياة كاملة في المنفى لا يمكن بترها" (الخطوات: ص51).

لذا فقد غيَّر العودة إلى "زيارة إلى الوطن لمدَّة محدودة"، وحتَّى أنَّه توانى في الحديث عن هٰذه الزِّيارة حتَّى بات من الضَّروري فتح الموضوع ونقاشه.

"وكما كان المنفى مقطَّعًا ستكون العودة مقطَّعة" (الخطوات: ص 51).

لذا تحوَّلت إلى عودة على عدَّة مراحل لأنَّها لا يمكن أن تكون نهائيَّة وعلى الفور.

"كثيرون عادوا إلى الوطن وتركوا عائلاتهم في المنفى... لم يكن بإمكان أيٍّ منهم أن يعود نهائيًّا وعلى الفور" (الخطوات: ص51).

إنَّ قضيَّة العودة مشروع عظيم، أصبح مجرَّد التَّفكير فيه، بالنِّسبة لليوسفي، مدخلًا لصراع نفسيٍّ رهيب، فهو يريد أن يحقِّق الحلم، ليجد في تحقيقه استعادة الرَّاحة والسَّعادة بنهاية فصل الظُّلم والتَّشريد والحرمان، فيعود إلى ذكريات طفولته، وتبدأ الحياة من جديد، ولٰكنَّه يريد أن يقتنع بذاته أنّ هٰذا هو طريق السَّعادة وأنَّ هٰذا هو الحلُّ الأفضل. فقضيَّته باتت ليست نزوحًا مؤقَّتًا، وضاع الأمل بالخلاص القريب من الاحتلال بمساعدة الجيوش العربيَّة. لقد باتت اقتلاعًا من الجذور، وتغيير معالم الوطن، ومنع العودة إليه، وبأيِّ ثمن حتَّى وإن عارض ذٰلك كل المواثيق الدَّوليَّة، وحتَّى لو تدخَّلت كلُّ جمعيَّات حقوق الإنسان. يبدو وكأنَّ الأمر بات مفروغًا منه.

كما أنَّ التَّفكير في قضيَّة العودة أصبح مدخلًا لصراع اجتماعيٍّ، أيضًا، فماذا يعمل مع زوجته وابنته اللَّتين يحبُّهما وتحبَّانه، ولٰكنَّ الوطن ليس وطنهما.

"أين تقع الجافنة على خارطة زوجتي مايا وابنتي نتاشا؟" (الخطوات: ص 30).

يتغلَّب اليوسفي على كلِّ الصِّراعات، فيسلِّم باتفاقيَّة أوسلو، ويسلِّم بتغيير جغرافيَّة الوطن، وبتغيير مساحة الوطن أم انّه لم يسلّم بشيء؟ إنّما بات يؤمن أنَّ هٰذه حلول مؤقَّتة، وما أوسلو إلَّا خطوة في طريق تحقيق حلم العودة التَّقليدي. يتغلب على كلِّ الصِّراعات ويعود إلى الوطن وفيه أمُّه زكيَّة السُّلطان.

"زكيَّة السُّلطان!... امرأة صغيرة على عكَّازتها تدبُّ في الحارة... امرأة عجوز ما زال لها وجه جميل رغم التَّجاعيد" (الخطوات: ص 84).

وفيها هاجر القاسم، حبيبته، بطلة قصَّة "خلَّة الرَّاغب" التي لا يمكن أن يحكيها لأحد، ولم تزل مجهولة إلَّا لليوسفي وزكيَّة السُّلطان وهاجر.

خلَّة الرَّاغب التي "كانت سفحًا لجبل ينتهي بالوادي، مليئة بالصُّخور، خفيفة التُّربة... وهناك كان اليوسفي!" (الخطوات: ص 19).

لقد بدأت بينهما علاقة حبٍّ بريئة.

"تحدَّثنا كثيرًا. تهامسنا في عزلة عن الدُّنيا... اكتفينا بلمسات عابرة. أحببنا أن يأتي الصَّباح كي نلتقي. كان ذٰلك في البداية قبل أن يسافر الى بيروت للدِّراسة" (الخطوات: ص 19).

ولٰكن تطورت هٰذه العلاقة حتَّى لم يعد اللَّمس كافيًا.

"وحين عاد لم تكن اللَّمسة كافية، ولا الهمس الطويل. سبقته إلى خلَّة الرَّاغب كان يومًا ماطرًا، واختفينا" (الخطوات: ص 19).

وفيها ابنه عارف الذي حمل اسمه، "الذي وهبه عبد العاطي لزكيَّة السُّلطان وهاجر، والذي انتشرت الشَّائعات أنَّه ولد من رحم شاة" (الخطوات: ص 87).

وفيها قبره المفترض الذي دفن فيه بتاريخ 1982/5/18.

"هٰذا إذنْ قبر اليوسفي: "يا أيَّتها النَّفس المطمئنَّة" هنا يرقد جثمان الشَّهيد عارف بن إبراهيم الغنايم" (الخطوات: ص 86).

ومع كلِّ ذٰلك فإنَّه لم يستطع الاستمرار، فالعودة للوطن ليست كما يظنُّ المغترب عنه طويلًا. وإن تحقَّق حلم العودة إنَّما يتحقَّق ماديًّا وجسديًّا، ولٰكنَّه لا يتحقَّق فكريًّا ومعنويًّا، ولذا لم يزل حلمًا وخيالًا. ممَّا حدا بالغزَّاوي أن يفكِّر أنَّ الوطن قد ضاع وأنَّ الجافنة لم تعد موجودة.

"أين ذهبت الجافنة؟ أنا أبحث عنها. كانت هنا قبل قليل" (الخطوات: ص 85).

تبكي وتصيح:

"أنا أبكي الجافنة. لقد اختفت... ولم أعد أسمع لها كلامًا" (الخطوات: ص 86).

ولٰكنَّه يستدرك، فالوطن لا يضيع وهو باقٍ ولو تطاول عليه الزَّمن، وتعاقبت الأجيال فالجافنة تصرخ:

"أنا قرية القرى... كنت هنا منذ الأزل... أنا هنا أبقى، وتمضون جيلًا بعد جيل" (الخطوات: ص 88).

مسـار الرِّحلة

إنَّ الأدباء الفلسطينيّين وغيرهم ممَّن تناولوا رحلة الفلسطيني التَّقليديَّة من موطنه إلى منفاه، تناولوا مسارها العام التَّقليدي الذي بدأ من الدَّاخل، وغالبًا ما ذكرت أسماء مفصَّلة للمدن أو القرى التي كانت مسقط رأس أبطال رواياتهم، مرورًا بكلِّ الأمكنة، والمحطَّات الثَّانويَّة، وانتهاء بالمخيَّمات التي أقيمت لهم في دول الجوار، ومنها إلى الشَّتات في كافَّة أصقاع الأرض.[9]

ذكروا هجرة الفلسطيني إلى أماكن أخرى في الدَّاخل، أو إلى الوطن العربي الكبير أو إلى العالم، حيث المنفى الدائم، وسببها اغتصاب وطنه، ومحاولة تفريغه من الفلسطينيّين، طوعًا أو قسرًا.[10] وبيَّنوا أنَّ الفلسطينيّين تحوَّلوا إلى جماعات ثانويَّة في جاليات مهمَّشة جغرافيًّا واجتماعيًّا، واقتصاديًّا، وسياسيًّا أيضًا. وفي هٰذه الجاليات أجيال من الفلسطينيّين، فالجيل المهاجر المقتلع، والمهجَّر، والنَّازح من وطنه، يعاني رحلة الغربة، ويحلم دائمًا بالعودة، ويحنُّ إلى الوطن، أمَّا الجيل الجديد، مواليد المنافي الذين لا تربطهم بوطن أهلهم سوى علاقة القرابة مع الأهل، وما نشأوا عليه من توصيف وذكر من قبل أهلهم.[11]

أمّا الغزَّاوي فمع أنَّه لم يبتعد كثيرًا عن هٰذا الإطار، فقد ذكر هٰذا المسار العامَّ أيضًا، وبيَّن الانتقال "من صفد إلى الجافنة وارتحل إلى عمَّان فبيروت فأوراسيا" (الخطوات: ص

9 إبراهيم، بشَّار. المخيَّم في الرِّواية الفلسطينيَّة. سلسلة النَّقد الأدبي. دمشق: وزارة الثَّقافة، 2006.

10 *Morris, B. (1989). *The Birth of the Palestinian Refugee Problem, 1947-1949*.Cambridge: Cambridge Middle East Library.

- الأستاذ، صبحي يوسف. "مشكلة اللَّاجئين الفلسطينيّين: دراسة في السِّياسيَّة الجغرافيَّة". مجلَّة جامعة الأزهر بغزَّة: سلسلة العلوم الإنسانيَّة، 11، 2 (2009): 64-1.
- عبد ربُّه، صلاح صالح. اللَّاجئون وحلم العودة إلى أرض البرتقال الحزين. بيت لحم: الجراشي، 1996.

11 زقُّوت، ناهض، الآثار الاجتماعيَّة للنَّكبة في الرِّواية الفلسطينيَّة. *رؤية* 20 (2002):167-182.

51)، وحاول أن ينظر إلى الرِّحلة نظرة غير اعتياديَّة، نظرة تختلف عن نظرة كلِّ سابقيه من الأدباء، خاصَّة كَنَفاني وحبيبي، بل حاول أن يفلسف رحلته القسريَّة، علَّ ذٰلك يخفِّف وطأة المعاناة النَّفسيَّة التي يعاني منها حين مقارنة نفسه بغيره. فكثيرون هم المهاجرون، والمسافرون إلى عوالم أخرى، ولٰكنَّ الرِّحلة تقاس بدوافعها، وهل هي طوعًا أو قسرًا. والغزّاوي إنّما يذكر ذٰلك موقنًا أنَّ القارئ يدرك سبب هجرته لٰكنَّه يذكر ذٰلك استعطافًا واسترحامًا. فحين يقول:

"وراء كلِّ رحلة قلوب مهاجرة برغبتها أو رغمًا عنها. هناك من سيلتقي بأحبَّائه وهناك من سيمشي دون رفيق إلى غربته الهادئة"(الخطوات: ص 27).

يتعاطف معه القارئ، ويدرك أنَّه هاجر مرغمًا، بالرَّغم من عدم تصريحه، ولٰكن حين يتساءل:

"أيٌّ من هٰؤلاء أنا؟" (الخطوات: ص 27) يستنتج القارئ الأزمة النَّفسيَّة التي يعيشها، فربَّما يجيب القارئ أنَّه سيمشي دون رفيق لغربته الهادئة، ولٰكن يستدرك: "إنَّني سأمضي إلى وحدتي" (الخطوات: ص 27).

وبذٰلك نستدلُّ على معاناته النَّفسيَّة الشَّديدة.

لقد بدأ بذكر تخوُّفه وخوفه، وقلقه كصغير، وكذٰلك قلق أهله، معبِّرا بذٰلك عن حالة عدم الاستعداد لرحيل الإنجليز، وعدم استعداد القيادات للسَّيطرة على البلاد. وكذٰلك التَّخوُّف، وقلق الفلسطينيِّين من تسليم البلاد لليهود.

"خروج الخواجات الإنجليز من المدينة لم يكن مصدر غبطة للنَّاس... مقدِّمة لحمَّام من الدَّم، وإسناد مباشر لليهود" (الخطوات: ص 53).

وبعد أن يذكر ما ورد لصفد من أخبار انكسار جيوش المقاومة، وقتل اليهود لكلِّ من يحاول الدِّفاع، وما أحدثوه من دمار وخراب، ومذابح طالت النِّساء والأطفال، وحرائق اشتعلت في البيادر أيقن الفلسطينيُّون هناك أنَّ "الذين يهربون بجلدهم قد ينجون من الموت" (الخطوات: ص 53).

وبعدها وبشكل مفاجئ يذكر:

"هٰكذا تقرَّر الرَّحيل" (الخطوات: ص 56).

إلَّا أنَّه يقول لاحقًا، إنَّ القرار اتُّخذ بشكلٍ عشوائيٍّ انفراديٍّ، ولم يكن ناتجًا عن اجتماع، ونقاش، وتداول الأمر، إنَّما قرَّر كلٌّ الرحيل بعد ما شاعت الإشاعات، ووصلت الأخبار من كل صوب.

كان النَّاس على أمل بأنَّ ما يحدث هو فترة عابرة وستزول، والجيوش العربيَّة آتية والنَّصر آت. هٰكذا علَّل الفلسطينيُّون هجرتهم، وتركهم بيوتهم، ومساكنهم، وأملاكهم. ولٰكنَّ هٰذا التَّعليل لا يروق الغزَّاوي فبطله يسائل أباه مستغربًا:

"كنت أظنُّ أنَّ النَّاس سيجتمعون ويقرِّرون لأنفسهم. لٰكنَّهم لم يفعلوا. لأوَّل مرَّة أشعر أنَّ الكبار يتخلُّون عن مسؤوليَّاتهم... فلماذا لا يلتقي الآباء؟ لم يجب عن سؤالي" (الخطوات: ص 54).

أمَّا الرِّحلة فيصفها وصفًا مقتضبًا.

"مشينا مع الفجر: امرأتان هما زكيَّة السُّلطان وعايشة الصَّفدي، ورجل أشيب كثير الصَّمت ركب حماره القصير النَّاحل، وأنا. لم نكن وحدنا على الطريق. الخلق كلُّه كان يخرج من كلِّ مكان، من الزَّوايا والمنعطفات والحواري الضَّيِّقة ويهبط إلى الوادي" (الخطوات: ص 56).

إنَّ المعاناة الجسديَّة والنَّفسيَّة المبيَّنة، تلميحًا أو تصريحًا، لبطله خلال رحلته، كانت تدفعه كما دفعت غيره لتقديس الوطن وفدائه. وقد بيَّن طبقتين مختلفتين ممَّن يفدونه؛ فالبسطاء الذين يحلمون بالعودة ولو لفترة مؤقَّتة، الذين يعتقدون، كما ذكر، إنَّ موتهم هو خطوة أولى نحو تحرير الوطن يقومون بعمليَّات فدائيَّة على حدود الوطن، ويعبرون ليموتوا هناك.

"بالأمس فقط قتل ثلاثة من الفدائيِّين بذات الطَّريقة التي قتل فيها خمسة قبلهم. إنَّهم لم يصلوا حدود فلسطين الشَّماليَّة" (الخطوات: ص 27).

"البطلين شادية وحامد فجَّرا نفسيهما على مقربة من عربة عسكريَّة إسرائيليَّة كانت تقلُّ مجموعة من الجنود" (الخطوات: ص37).

وهناك مجموعة أخرى من القيادة التي تجنِّد هٰؤلاء للقيام بمثل هٰذه العمليَّات، ويتساءل الغزَّاوي إن كان هٰؤلاء يخدمون وطنهم حقًّا أم أنَّهم يدفعون البسطاء للموت. والفرق بينهم بات واضحًا؛ فهناك من يموتون:

"هٰؤلاء يعبرون إلى الوطن ويعلمون أنَّهم يموتون من أجله" (الخطوات: ص 40).

وهناك من يزدهرون.

"هناك من يزدهرون لأنَّهم كانوا السَّبب في رحلتهم إلى الموت" (الخطوات: ص27).

إنَّه بعد ذٰلك يقول ناقدًا لما ذكر أنَّه من المألوف:

"إنَّنا لم نراجع استراتيجيَّاتنا بعد، لأنَّنا لم نجرؤ على تحديد الطَّريق بوضوح" (الخطوات: ص 27). وفي الأمر تصريح مطلق بأنَّ ما يُفعل في هٰذا المضمار خطأ كبير، وهو ما يوصل للاختلاف.

لقد عرض الغزَّاوي ذٰلك بطريقة يبدو أنَّه يميل فيها للتَّميُّز والاستحداث علمًا منه أنَّ هٰذا المجال حافل بالرِّوايات والأدبيَّات التَّقليديَّة. وبأنَّه لم يستطع، بدافع الواقع، الاستحداث في مضمون الرِّحلة، فقد استحدث بطريقة عرضه لرواياته (الحواف، وجبل نبّو، وعبد الله التّلالي، والخطوات)، وفنِّيَّتها، وذاتيَّتها.

فقد اعتمد الوصف الحسِّيَّ للأحداث، وذكر تعابير مفعمة بمعاني الحزن والظُّلم واليأس والمعاناة، كما استعمل تعابير معهودة للتَّعبير عن هول الفاجعة لٰكنَّه بالرَّغم من ذٰلك اختصَّ وتميَّز من حيث المبنى المعرفيّ المعلوماتيّ وطريقة عرض الرِّوايات.

ففي رواية الخطوات، مثلًا، فإنَّ ما اختصَّ به الغزَّاوي، وحاول أن يتميَّز به من حيث المتعلِّق بمضمون الرِّواية هو أنَّه لم يذكر تفاصيل الرِّحلة القصيرة، وإنَّما حدَّدها وكأنَّها انتقال إلى حيث لا مكان.

إنَّ في الإيجاز بوصف الرحلة رسالة واضحة للمتلقّي أنَّ الغزّاوي يهتمُّ بالمضمون وبالحدث نفسه، وليس بتفاصيل الحدث. وبذلك فكأنَّه يختصُّ بجمهور معيَّن، هو الجمهور الفلسطينيُّ الذي يلمُّ بتفاصيل رحلة الهجرة إلى الغربة والمنفى.

ولم يتح له هذا الإيجاز أن يذكر المعاناة الجسديَّة التي صادفتهم خلال رحلتهم، ولم يذكر معاناتهم النَّفسيَّة، وما عانوه من خوف، ومن قلق بإسهاب، إنَّما بيَّن أنَّها كانت دافعًا لهم لرفع قيمة الوطن، ورفع مستوى الاستعداد للتَّضحية من أجله. كما أنَّه لم يذكر الآخرين المهاجرين إلَّا أنَّهم كثر وجاءوا من كل مكان.

"الخلق كلُّه كان يخرج من كلِّ مكان" (الخطوات: ص 56).

وقد ذكر الغزّاوي في رواياته الفلسطينيَّين الرَّاحلين، مستعملًا تعابير "المهاجرين"، و"اللَّاجئين"، وكذلك "الهجرة"، و"الرَّحيل الطَّوعي والقسري"، و"النُّزوح"، و"التَّهجير" وكلَّ تعبير من شأنه وصف الرِّحلة. ولكن ما يميِّز هذا الاستعمال أنَّ هذه التَّعابير تُذكر بدون رتابة وبدون تواصل شكلي. فالمهاجرون هم اللَّاجئون وهم الرَّاحلون. وهذا ما يعطي عنه طابع الاهتمام بالمضمون وليس بالشَّكل.[12]

فعلى سبيل المثال يذكر:

"حين جاء المهاجرون إلى الجافنة" (الخطوات: ص 14). و "المهاجرين الذين يهربون إلى الشَّمال والشَّرق"

(الخطوات: ص 55). و "هل أخاف أولئك اللَّاجئين أم أحبُّهم" (الخطوات: ص 15).

12 يظهر ذلك واضحًا في اهتمامات عزَّت الغزّاوي في حياته العمليّة اليوميّة، كشؤون الهجرة والمنفى وقضايا اللَّاجئين. فقد ترجم، على سبيل المثال، كتاب لزئيف ستيرنهل الذي يتناول قضيّة اللَّاجئين وعلاقة المستوطنات اليهوديّة بالقرى العربيّة. ستيرنهل، زئيف. الأساطير المؤسِّسة لإسرائيل: القوميّة، الاشتراكيّة وقيام الدَّولة اليهوديّة، مدار: المركز الفلسطيني للدِّراسات الإسرائيليّة، 2001.

المنفى

بعد أن أورد الغزّاوي مسار الرِّحلة القصير، وعَرَضه مضيفًا للتَّقليدي خصوصيَّات ميَّزت أسلوبه وطريقة عرضه، انتقل إلى المنفى الذي يعرِّف، وبشكل مألوف، بأنَّه بلد الهجرة والغربة واللُّجوء ومهما كانت الأسباب، شخصيَّة كالباحث عن الحرِّيَّة، أو اقتصاديَّة كدفع أوضاع معيشيَّة أو أيَّ أسباب اجتماعيَّة أخرى. والمنفى هو بلد الإبعاد عن الجماعة التي تعيش في وطن مشترك، والاقتلاع من الوطن والماضي، وقيل المنفيُّ هو من منع من العودة إلى الوطن لأيِّ سبب.[13]

أمَّا بالنِّسبة للفلسطيني فالمانع هو دولة أقيمت على أرضه، وتستقدم كلَّ يهوديٍّ في العالم ليسكنها وتعارض عودة أيِّ فلسطيني. فالفلسطينيُّون، إذنْ، أينما وجدوا في المنفى فهو، بالنسبة لهم، المعاناة بأشكالها وأنواعها، جسديَّة وماديَّة ونفسيَّة وفكريَّة، وهو الشُّعور بالضَّعف وعدم الاستقرار، وهو الضَّغط النَّفسي والهزيمة بأشكالها، وهو الحلم الدَّائم المستمرُّ بالعودة إلى مكان، وهو حياة البؤس والإحباط والقلق والشَّقاء.

كما يعني بالنِّسبة لهم العيش في عالمين مختلفين، عيشة رمزها العزلة والغربة والحرمان، حياة محطَّمة يسعى كلُّ فلسطيني لإعادة تشكيلها من جديد.

أمَّا تربية أبنائه فهي توجيههم وإرشادهم إلى غير واقعهم، ومحاولة ربطهم بوطن ليس لهم إلَّا بالوراثة.

إنَّ ما يمكن اعتباره من الخصوصيَّة والاستحداث الذي عمد له الغزّاوي في هٰذا المجال، هو نظرته الواقعيَّة للمنفى، فمن الحمق، حسب اعتقاده، وقف الحياة في المنفى، والعمل على محاولات العودة إلى الوطن. ولٰكن يجب استمرار الحياة في المنفى وفي نفس الوقت عدم إغفال أيِّ خطوة تقرِّب المنفيَّ من الوطن وأيِّ محاولة للعودة إليه.

13 سعيد، إدوارد. تأمُّلات حول المنفى (ترجمة: ثائر ديب، 2004)، بيروت: دار الآداب، 2000.

لقد اعتبر وقف الحياة في المنفى من العناد التَّاريخي، واستمرار الحياة ضرورة ملحَّة. وميَّز بين الجيل الذي هاجر إلى المنفى وبين الأجيال الذين ولدوا هناك. والغزَّاوي يعتقد أنَّ لكلٍّ من هٰؤلاء اعتباره الخاصَّ، فإن كان المنفيُّون يعتبرون العودة إلى فلسطين تحقيقًا لحلم العودة، فهو بالنسبة لمواليد المنفى منفى ورحلة غربة. ففلسطين ليست وطنهم الذي ولدوا فيه وترعرعوا، إنَّما وطن آبائهم وأجدادهم. وتقليديًّا يعتبر وطنهم بالانتساب فقط، وليس لأنَّه مسقط رأسهم أو حامل ذكريات طفولتهم. لذٰلك فقدومهم إلى فلسطين هو ترك لأوطانهم التي تحمل ذكريات طفولتهم واللُّجوء إلى منفى.[14]

المبنى الفنّي

تداخل الأمكنة والأزمنة والشَّخصيَّات والأحداث

تميَّز الغزَّاوي في رواياته (الحواف، وجبل نبّو، وعبد الله التّلالي، والخطوات)، بالاستخدام الفنِّي للشَّخصيَّات وتحريكها بشكل متقن في عدَّة أمكنة، وبنفس الوقت أحيانًا، ما يجعل هٰذه الأمكنة متداخلة في بعضها، ويصعب تحديد وجود الشَّخصيَّة في أحدها أو أخراها بشكل مباشر دون التَّمعُّن والتَّدقيق.

إنَّ التَّداخل في الأمكنة وحركة الشَّخصيَّات في الرِّواية يعطي عن الكاتب طابع الرِّوائي القادر، المتمكِّن، الفنِّي، الخبير، المتقن لعمله، الذي يضع قرّاءه أمام روايات ذات مبنى غير عادي بعيد عن المباشرة والبساطة.[15] ففي الخطوات، مثلًا، نرى التَّداخل بين الجافنة وبيروت وأثينا وأوراسيا كما نراه في روايات أخرى كذٰلك؛ ففي الحواف، مثلًا، بين عمَّان

14 أبو إصبع، صالح، الرِّواية الفلسطينيّة والمنفى: الجزيرة العربيّة مكانًا: دراسة في التَّجربة الرِّوائيّة الفلسطينيّة. الإمارات: اتِّحاد كتّاب وأدباء الإمارات، 2001.

15 ماضي، شكري عزيز. الرِّواية والانتفاضة. نحو أفق أدبي ونقدي جديد. بيروت: المؤسَّسة العربيّة للدِّراسات والنَّشر، 2005.

وقرية المجدل، مع أنَّ الأمكنة فيها تعدَّدت، أيضًا فمن المجدل، إلى اليرموك، فتلِّ الزَّعتر، فبيروت، فعودة إلى الوطن.[16]

إنّ الغزّاوي لا يختصُّ أو يتميَّز في تداخل الأمكنة فحسب، إنَّما حاول الاستحداث في اختيار المكان وتصويره. أمّا تصوير المكان فلم يخل من مظاهر الرَّبط بين الوطن كمكان مغتَصَبٍ وبين حلم العودة إليه.[17]

إنّ بعض الأمكنة في رواياته حقيقيّة، وبعضها متخيّلة ومستحدثة كالسَّدير في جبل نبّو وثملة في عبد الله التّلالي والجافنة في الخطوات، لٰكنَّها أبرزت ببراعة لأنَّه حين تخيَّلها قام بذٰلك بدقَّة وحرص شديدين، وقام بربطها بالشَّخصيَّات في الرِّواية وبالمعنى أيضًا. فإنَّ ربط الجافنة القرية المتخيَّلة التي استحدثها واستغلَّ رمزها ودلالتها بشخصيّة اليوسفي وجعلها وطنه، فقد ربط بين الحاج عبد النَّبي في رواية الحواف بجبال المجدل. كما ربط بين الحاجّ إبراهيم في رواية جبل نبّو بجبل نبّو الجغرافي، وعرض ذٰلك بدقَّة متناهية.[18]

لم يدأب الغزّاوي بتداخل الأمكنة وبعرضها بهٰذا الشَّكل عبثًا أو من قبيل الصُّدفة إنّما حرص على ذٰلك متعمِّدًا، فكأيِّ روائيٍّ فلسطينيٍّ آخر أدرك أنّ بناء المكان يجب أن يكون منسجمًا مع مزاج وطبائع الشَّخصيَّات.[19] لهٰذا فقد جعل للمكان في رواياته فاعليّة عظمى

16 الغزّاوي، عزَّت. الحواف. القدس: اتِّحاد الكتَّاب الفلسطينيّين، 1993؛ موسى، إبراهيم النِّمر. "جماليّات التَّشكيل الزَّماني والمكاني في رواية الحواف". مجلَّة فصول، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب. 2،12 (1993)؛ العيلة، زكي. (2011). "فضاءات المكان والزَّمان في الرِّواية الفلسطينيّة". مؤسَّسة القدس للثَّقافة والتُّراث.

17 حطِّيني، يوسف. مكوّنات السَّرد في الرِّواية الفلسطينيَّة. دمشق: اتِّحاد الكتّاب العرب، 1999.

18 الغزّاوي، 1993، مصدر سبق ذكره. والغزّاوي، عزَّت. جبل نبّو. بيروت: المؤسَّسة العربيّة للدِّراسات والنَّشر، 1995؛ شعث، أحمد. "الشَّخصيّة في رواية الحواف لعزَّت الغزّاوي"، مجلَّة جامعة الخليل للبحوث، 5، 2، (2010): 18-1.

19 بحراوي، حسن. بنية الشَّكل الرِّوائي. بيروت: المركز الثقافي العربي، 1990.

مجسِّدًا علاقة أبطاله به، وجاعلًا منه مكانًا لمشاعر شخوصه، ومؤثِّرًا مباشرًا عليها وعلى سلوكها في الرِّواية.

وعلى شاكلة تداخل الأمكنة كذا تداخل الشَّخصيَّات في الرِّواية الواحدة، فروايات الغزَّاوي ليست من الرِّوايات الحواريَّة، مفصولة الشَّخصيّات التي يمكن للقارئ التَّمييز بين صوت وصوت، وبين وجهة نظر وأخرى، كلُّ وجهة تميّز شخصيَّة معيّنة وتذكر بوضوح. أمّا في رواياته فعلى القارئ التَّركيز والتَّدقيق كثيرًا حتّى يتمكَّن من تمييز وجهة معيّنة لأيِّ شخصيّة في الرِّواية.

فالشَّخصيّة في روايات الغزَّاوي تتحكَّم بالحدث بشكل واضح، لذا تُعرض الأحداث من وجهة نظر الشَّخصيّة.

وأحيانًا يظهر تداخل الشَّخصيَّات في روايات الغزَّاوي نتيجة التَّغييب المتعمَّد لبعض الشَّخصيَّات. فتغييب اليوسفي في الخطوات، مثلًا، وإظهار حمزة الكاظم يجعل القارئ يتابع أفعال وأقوال ووجهة نظر اليوسفي الميِّت على لسان حمزة الكاظم الحي (الخطوات: ص 38-39)، وفي رواية عبد الله التّلالي[20] غيّب التّلالي نفسه. وتغييب الشَّخصيّات هو مخرج فنّي للكاتب، حيث يستطيع خلاله التَّعبير عن وجهة نظره بشكل مباشر، وبدون ناقد أو رقيب. كما يستطيع أن يداخل الحاضر والماضي، أو يداخل الشَّخصيّات في الرِّواية.

ولهٰذا فالتَّغييب ليس بالأمر السَّهل في الرِّواية وهو من حيث الأسلوب والفنِّيّة يعبّر تعبيرًا واضحًا عن مقدرة فذّة للكاتب، وعن إمكانيّة السَّيطرة التَّامّة على النّص من حيث الأفكار والمضمون والمبنى.

وأحيانًا يظهر التَّداخل حين المزج المتعمّد من قبل الغزَّاوي بين الواقع أو الأحداث الآنيّة وبين ذكريات الماضي التَّقليديّة، فبعض الذِّكريات يذكرها وهو في حجرته في أوراسيا وعلى لسان أمّه زكيَّة السُّلطان أو هاجر القاسم في الجافنة.

20 الغزَّاوي، عزَّت. عبدالله التّلالي. نابلس: دار الفاروق، 2000؛ أبو إصبع، 2001، مصدر سبق ذكره.

وهٰكذا فالغزّاوي إنّما يتميّز بذٰلك في جميع رواياته. ففي الخطوات، مثلًا، منذ بدايتها يتساءل القارئ: هل هٰذه صورة المؤلّف الحقيقي (الغزّاوي) أم بطل روايته؟

"شعرت بقلق مفاجئ. حاولت أن أقف متكِّئًا على الكرسي، لٰكنَّني... لا أحد في البيت سواي" (الخطوات: ص 7). وفي موضع آخر: "انحنت أمُّ يونس فوق راسي وقالت:" غدا ستذهبين إلى مقام اليوسفي لتطلبي البركة!

"يا سيدي اليوسفي، أيّها المبارك، هبني ولدًا باسمك وأعطيه اسم "عارف" ليتذَّكر دائمًا أنّك واسطته إلى الله" (الخطوات: ص 79).

فمن المتوَجِّه لليوسفي؟ أمُّ يونس أو زكيّة السُّلطان، وعلى الأقلِّ للوهلة الأولى؟

إنّ روايات الغزّاوي تميّزت بتداخل الأزمنة[21] فيها أيضًا، وذٰلك دلالة على أنّ الغزّاوي، ككاتب يحرّك بطله وشخوصه، يمثِّل عدم الاستقرار النَّفسي والقلق والأزمة، ولهٰذا فتداخل الأزمنة هو من مظاهر الأزمة النَّفسيّة التي تعيشها شخصيّات رواياته التي لم تكن بالشَّخصيَّات الجاهزة ولا المسطَّحة، إنّما شخصيَّات ديناميكيّة متغيّرة، وبالإمكان وصفها ونقاشها وحوارها.

ومن أسباب أزمته النَّفسيّة أنّه مقتلَع من وطنه، مجتَثٌّ من جذوره، راحلًا، مهاجرًا، نازحًا، منفيًّا، يتذكَّر وطنه ويحنُّ إليه، ويعايش منفاه ولا يتخلَّى عنه. وهو من عانى الرِّحلة والتَّغيير، وقاسى التَّهجير والتَّرحيل، وما انطوى عليه من ظلم وعدوان.

يحنّ للماضي، ففيه ذكريات سعيدة وفيه مؤلمة أيضًا، ولٰكنَّه لا يمكنه الانقطاع عنها في حاضره. ففي بعض الحالات يتحدّث عن شخوصه في الحاضر، فيعود للماضي لتعريف قارئه بالشَّخصيّة.

21 للاستزادة انظر: مبروك، مراد عبد الرَّحمٰن. بناء الزَّمن في الرِّواية المعاصرة. القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1998.

وقد ظهر في رواياته أنّه استخدم عنصر الزَّمن بشكل خاصٍّ مبرزًا مقدرته على استخدامه وفق معايير شخصيّة مستحدثة، ووفق ما يريد لنصّه، ولشخصيَّاته، ومعانيه، كما قام بتجنيد مركَّبات أخرى للمساهمة في ذٰلك الاستخدام كالتَّغيير في شخصيّات الرِّوايات، وتغييب بعضها. والتَّغييب، أيضًا استراتيجيّة لتخطِّي العامل الزَّمني في الرِّواية، وكذٰلك قام الغزَّاوي باستخدام الأساطير والحكايات وضمَّنها الرِّواية لتعينه على عامل الزَّمن، مع أنّ لكلٍّ منها زمنها الخاصّ.[22]

وكذٰلك تداخل الأحداث في الرِّواية الواحدة، والحديث هنا، هو عن الحدث المجرّد الخالي من الدَّلالة الزَّمانيّة؛ لأنّ الزّمن يتداخل أيضًا، كما ذكر، وتداخل الأحداث هنا بالرَّغم من فرض الكاتب لزوم الدِّقّة في القراءة، والتَّأني في متابعة الأحداث، إلَّا أنّه يعطي للرِّواية فنِّيّة خاصّة يستفرد بها الغزَّاوي ويبرزها بإتقان. فتداخل الأحداث في الرِّواية يساهم في تطوُّر الحبكة، ومسار أحداث الرِّواية، ويدفع نحو التَّصعيد في الأحداث.

إنّ تداخل الأحداث هو نتيجة تذكُّر أحداث معيّنة، والعودة إليها أو لعرضه أكثر من حدث فرعي يساهم في تطوير بناء الحدث الرَّئيسي، وقد عرض ذٰلك بطريقة خاصّة ومميّزة. ففي "الخطوات"، مثلًا، يتحدّث عن ميّ رسولي، وعلاقتها بالبدري، وغيرته عليها، وتساؤله عنها، وعن بعض صفاتها، وحتّى اسمها ثمّ ينتقل مباشرة للحديث عن حدث عظيم في القرية؛ فيصف الرِّجال واستعدادهم لقتال رهيب، وسرعان ما يكشف أنّ الحدث هو صراع كلاب غريبة، وخلال المعركة يطأ الكلب الدَّامي كلبة الجافنة المدلَّلة، وبعدها ينتقل إلى تذكُّر مراهقَيْن يسيران ليذكّراه بزوجته في تعارفهما الأوَّل (الخطوات: ص 23-25).

22 انظر: القصراوي، مها. الزَّمن في الرِّواية العربيّة. بيروت: المؤسَّسة العربيّة للدِّراسات والنَّشر، 2004؛ العيد، يمنى. تقنيَّات السَّرد الرِّوائي، بيروت: دار الفارابي، 1990؛ أيُّوب، محمَّد. الزَّمن والسَّرد القصصي في الرِّواية الفلسطينيّة المعاصرة بين 1973- 1994. رام الله: دار سندباد للنَّشر والتَّوزيع، 2001.

وفي أمكنة كثيرة من الرّواية ظهر تسارع الأحداث واضحًا. وهٰذا التّسارع ربّما يدلُّ على الحالة النّفسيّة للكاتب أثناء ليلة الرّحيل. فالوضع العام من الخوف والقلق، والتّأهُّب إلى الرّحيل والهجرة، جعله يسارع إلى حدٍّ ملحوظ في ذكر الأحداث. فحضّ الصّفدي على الجهاد، وموت الصّفدي، وتساؤل اليوسفي عن شكل اتّخاذ القرار، وأمل الأب في مقدم الجيوش العربيّة، ونبوءة زكيَّة السُّلطان وقدوم زملاء اليوسفي، كلّ ذٰلك جاء به في صفحة واحدة (الخطوات: ص 54).

الأسطورة: توظيفها وإيحاءاتها

إنّ الغزّاوي في كافّة رواياته كان مولعًا بتضمين الأسطورة وتوظيفها لصالح رواياته، وهٰذا التّضمين والتّوظيف جاء لخدمة الحدث، وتطوُّره السّردي. فمن النّاحية الشّكليّة تظهر الأساطير المضمّنة وكأنّها مفصولة عن مسار الحدث، ولٰكنَّ فحواها ومضامينها إشارة واضحة إلى أنّ الغرض من تضمينها هو دعمٌ للحدث، وتطويرٌ للفكرة، والمساهمة في حركة الأحداث وتتابعها في الرواية.

وبذٰلك فالتّضمين الدّقيق والمدروس للرّواية، والموظَّف بشكل متقن يجعلها ركيزة من ركائز الرّواية ولها أهميّتها العظمى.[23]

فأسطورة "نشيد الخلق" الآشوريّة في جبل نبّو،[24] و"أوديب الملك" في الخطوات، مثلًا، تساهمان في حركة الشّخصيّات، وتفسّران أعمالها وأحاسيسها.

إنّ للأساطير والحكايات الشّعبيّة المألوفة دورًا فعالًا في إثراء معنى الرّوايات، وإعطاء المعنى المراد من قبل الكاتب أهميّة عظمى، وذٰلك لما للأساطير والحكايات من دلالات متنوّعة ومختلفة.

23 الصّالح، نضال. النُّزوع الأسطوري في الرّواية العربيّة المعاصرة. دمشق: اتّحاد الكتّاب العرب، 2002.

24 الغزّاوي، 1995، مصدر سبق ذكره.

فالأساطير والحكايات مستند يستند إليه البطل أو أحد شخوص الرّواية لتفسير حركته وسلوكه.[25]

وفي مواضع أخرى يقوم الغزّاوي بإيحاءات أسطوريّة أي أنّه يحوّل واقع شخصيّة من شخصيّات روايته إلى واقع أسطوري أو يصف سلوك هٰذه الشَّخصيّة بأنّه سلوك أسطوري. فجنون زكيَّة السُّلطان، وولادة عارف الرَّاعي من رحم شاة في الخطوات، هو إيحاء من الأساطير القديمة، وكذا تغييب اليوسفي وإظهار حمزة الكاظم، أي أنّ بطل الرّواية يعيش في عالمين مختلفين فهو ميّت عندهم وحيّ عند نفسه.[26]

إنّ هٰذا ما يشهد للغزّاوي بمعرفته بالحكايات الشَّعبيّة والأساطير. وهٰذه المعرفة عبارة عن ثقافة واسعة. كما تشهد رواياته بإلمامه بالجانب الدّيني الذي يبدو صراحة أو تلميحًا ويوظّفه وحقائقه بصياغة خاصّة، فيضمن لنفسه البعد عن النَّقل والتَّضمين المباشر، فهو يذكر على سبيل المثال ولادة هاجر القاسم في المغارة بعيدًا عن أعين الناس، والإتيان بالمولود إلى الناس، وطلب عبد العاطي من الناس أن يكلّموه. أليس هٰذا مستوحى من قصَّة مريم العذراء؟

كما يناقش رواية البئر الذي أخفي فيه سيّدنا يوسف، عليه السَّلام، ذاكرًا الرّوايات المألوفة عنه في الأدبيّات الدّينيّة.

اللُّغة

إنّ لغة الغزّاوي ظهرت دائمًا بسيطة، دالَّة ومعبّرة، كما أنّها سريعة الوصول إلى الغرض. فهو لا يستخدم الجمل الطَّويلة والتَّعابير الثَّقيلة، إنّما يستخدم الجمل القصيرة التي تكاد

25 للاستزادة انظر: السَّيّد، وجيه يعقوب. توظيف الأسطورة في الرّواية العربيَّة المعاصرة. حوليَّات الآداب والعلوم الاجتماعيَّة. 287 (2008): 16.

26 سلمان ، 2004، مصدر سبق ذكره.

توصل بعض الفقرات إلى مستوى الشِّعر لإجادة الوصف والخيال.[27] فهذه إشارة لاهتمامه بإجادة الوصف، فإن وصف مكانًا كأنّك تراه أو شخصيّة كأنّك تعايشها.

وكذا كانت لغته قادرة على التَّعبير عن الشَّخصيّة والحدث والمكان بدقّة. وفي سرده القصصيِّ كانت لغته غنيّة، مكثّفة وشاعريّة. حتّى قيل عن "رسائل لم تصل بعد"، مثلًا، إنّها نصوص ليست بالشِّعر مع أنَّ في بعضها لغة شاعريَّة، وهي ليست بالقصَّة مع أنَّ في بعضها سردًا قصصيًّا، وبلغتها المكثَّفة ابتعدت عن الخطاب المباشر وعن الشِّعارات في طرح قضايا الأسرى، وقضيَّة الاحتلال وقضية الوطن المحتلِّ، لترتقي إلى البعد الإنساني الذي يدخل القلوب والعقول دون استئذان". [28]

هٰذه الرَّسائل، لغة ومضمونًا، هي بوح ذاتي، يبثُّ المشاعر الإنسانيّة نحو أسرة، أُبْعِدَ عنها إلى غياهب السُّجون الإسرائيليّة فعانى هناك ما عانى. يبثُّ عواطفه نحو أسرة فقدت ابنها الذي قتل بيد الاحتلال، نحو أسرة هي أهل، زوجة وأطفال وصغيرة.[29]

وهٰكذا فالاستحداث والخصوصيّة هو في مقدرة الغزَّاوي، وبراعته في توظيف الجمل القصيرة لخدمة النّصِّ، ووصف الشَّخصيّة، وتطوير الفكرة.

27 أبو مطر، أحمد. قراءة نقديَّة في أعمال عزَّت الغزَّاوي الرِّوائية كنموذج للرِّواية الفلسطينيَّة الجديدة. إضاءات 6 (1999): 1-6.

28 السَّلحوت، جميل. (2006). "رسائل عزّت الغزَّاوي والبوح الإبداعي الإنساني"، التَّجديد العربي؛ حسن، شاكر فريد. (2012). "شيء من الذَّاكرة : تكريم الرِّوائي الفلسطيني عزّت الغزَّاوي". البيادر السِّياسي، 1017، 33-35.

29 Ghazzawi, I. (1994). Point of departure (Letters from Prison), Jerusalem-Arab Center for Contemporary Studies. reviewed by GALIT HASAN-ROKEM. In: Palestine-Israel Journal (P.I.J.), Vol.1 No.1.

مبنى مميّز

تعمّد الغزّاوي أن يرسم لرواياته مبنى مميّزًا في خصوصيّة واستحداث، وذلك لرغبته دائمًا في الخروج عن المألوف. وقد ظهر هٰذا المبنى جليًّا في رواية الخطوات، فظهرت الرِّواية منذ بدايتها وكأنّها سجلّات قضائيّة رُكِّزت فيها معلومات مختلفة عن قضيّة معيّنة هي قضيّة البطل من أشخاص مختلفين، ولٰكن حول نفس القضيّة.[30]

فرتّبت الرِّواية بشكل شهادات مختلفة، وروايات مختلفة على لسان اليوسفي، وزكيَّة السُّلطان، وهاجر القاسم، ومي رسولي، وما قاله الكاظم، وما قرأه الحكواتي، حتّى أنّ هناك روايات لم تنسب لأحد، ولٰكنَّها وجدت في هٰذه المحضر. وممّا يدل على أنّ الغزّاوي تعمّد مبنًى خاصًّا لرواياته، وخاصّة الخطوات هو أنّه يذكر في بدايتها أنَّ أمامه "فصول من رواية بدأت أشكّ في إمكانيّة ترتيبها" (الخطوات: ص 7).

قراءة سياسيّة لرحلة الفلسطيني

يتبيّن من خلال القراءة السِّياسيّة لروايات الغزّاوي أنّه بات يؤمن أنّ الرِّحلة باتت واقعًا مفروضًا وأمرًا مفروغًا منه، وكأنّ رسالته لقرّائه أنّه هاجر من هاجر، ونزح من نزح، هُجّر من هُجّر وشُرّد من شُرّد، ومهما كانت الأسباب، ومهما كانت المعاناة، ومهما كان هدف الرَّاحل والمرحِّل، الفلسطيني والإسرائيلي، فالرِّحلة أصبحت في عداد الماضي مخروطة في ذاكرة جيل النَّكبة.

ومهما قال العربي والأجنبي، ومهما تخيّل الفلسطيني أنّ زمن الرِّحلة قصير، وأنّه سيعود إلى الوطن، وأنّ النَّصر آت والخلاص ليس ببعيد، فإنّ الرِّحلة كانت وطالت مدَّتها وها هي بالنِّسبة للغزّاوي كغيره من الفلسطينيّين، تزيد عن السِّتَّة عقود، فيجب النَّظر إليها بواقعيّة وموضوعيّة ولا أن نفلسفها، ونصف معاناتها ومقاساتها لنستعطف الآخرين.

30 سلمان، 2004، م.س.

فخلال الفترة السَّابقة تعاطف الكثيرون، ودعم الكثيرون، وأنفق الكثيرون، مالًا وعتادًا، وأمطر قادة العالم والعرب خاصّة شعارات التَّضامن والتَّعاطف، والتَّأييد والنَّصرة، وتصريحات الشَّجب والإنكار والمعارضة لكلِّ اعتداء على الفلسطيني أينما كان. والسُّؤال الموضوعي: ما هي ثمرة ذٰلك؟

هٰذا السُّؤال يجب أن يكون نقطة التَّحوُّل في التَّفكير والتَّخطيط والتَّنفيذ.

إنّ الفلسطينيِّين الأوائل، جيل النَّكبة لو وصفوا معاناتهم وعذابهم، وغلبت عليهم عواطفهم في الحكم على الأمور، فمعذورون. إنّما ذٰلك لهول الصَّدمة، وتغيير الموازين المفاجئ، والتَّحوّل إلى أقليّة في البلاد وبقيّة الشَّعب مشرّد. فإنّهم لم يصدِّقوا للوهلة الأولى ما حدث. لم يصدِّقوا أنّهم، وبأي طريقة، نزحوا عن وطنهم واحتلَّه آخرون، وأقاموا دولتهم، واعتُرِفَ بها عالميًّا. [31]

قالوا "مؤامرة بريطانيّة صُهيونيّة مكشوفة"، و"ستأتي الجيوش العربيّة وتخلّصهم". قالوا عن دولة إسرائيل "الكيان الصُّهيوني"، و"الدَّولة الميّتة" و"العابرة"، و"دولة الاحتلال" و"دولة العدوِّ الإسرائيلي".

أمّا اليوم فيجب النَّظر بموضوعيّة، فإسرائيل حقيقة واقعة، وكثير من الدول العربيّة تسعى للتَّطبيع معها، وهناك ضغوط أمريكيّة وأوروبيّة للاعتراف بها وإقامة علاقات معها.

وهٰكذا فالنَّظرة للوطن بواقعيّة وتعقّل تعني التَّمييز بين وطن الكبار، جيل النَّكبة الذين عاشوا فيه وخطُّوا ذكريات طفولتهم، وبين الوطن وما يعنيه بالنِّسبة للصِّغار مواليد المنافي. فمهمَّة جيل النَّكبة المثاليّة، إذنْ، هي نقل تراث الوطن ومحبّته للأبناء والأحفاد دون إلزامهم بالعودة إليه، والحنين إليه، ويجب الاهتمام بذاكرتهم الطُّفوليّة أيضًا. والذَّاكرة يجب ألَّا تكون للحنين للماضي فقط، بل يجب أن تقود إلى قراءة مجدَّدة للتَّاريخ.

31 الجرّار، 1995، م.س.

والقراءة المجدَّدة يجب أن تكون منطقيّة، وغير مبنيّة على العواطف والمشاعر فقط. فلا يجب أن تضيع أيُّ فرصة للعودة بحجَّة إرادة تحقيق حلم العودة إلى الوطن الكامل، أي أن تعود حتّى ولو لجزء منه (رمزًا لاتِّفاقيّة أوسلو).

ومن ناحية أخرى أن تعارض أيَّ تدخّل بحجّة الانحياز للعدوِّ والكيل بمكيالين. فللفلسطيني أن يسمع ويناقش العروض بشكل موضوعي، ويقبل أو يعارض حسب تقديراته، وليس حسب ما يفرضه الآخرون.

أمّا بالنِّسبة للمنفى، فمع كلّ المعاناة والظُّلم والإجحاف والنَّظرة لما حدث وكأنّه حادثة مؤقَّتة وعابرة إلَّا أنّ الحياة يجب أن تستمرَّ حتّى وإن نظر الآخرون نظرة دونيّة. فيجب أن يثبت المنفيّ نفسه حتّى في منفاه، وأن يعيش حياته وواقعه، ولا يمنعه ذٰلك من الحنين للوطن، ومن التَّفكير بالعودة، ومن التَّخطيط لتحرير الوطن، والعمل الدَّؤوب من أجل ذٰلك.

خاتمة

تناولت هٰذه الدِّراسة رحلة الفلسطيني من الوطن إلى المنفى في روايات الحواف، وجبل نبّو، وعبد الله التّلالي، والخطوات، مع تركيز على رواية الخطوات، قمّة إنتاجه، حيث اعتبرتها عيّنة لرواياته، ولم يمنع ذٰلك من الاستشهاد بأمثلة من الرِّوايات الأخرى المذكورة. فقد بدأت بموجز عن حياة الغزّاوي ونشأته وآثاره وبعض ما قيل عنه. ثمّ دخلت بعد ذٰلك إلى الرِّحلة كموضوع رئيسيٍّ فقدّمت باقتضاب عن المسار التَّقليدي لرحلة الفلسطيني ثمَّ مسارات رحلة الفلسطيني في الرِّوايات الأخرى للغزّاوي.

بيّنت عرض الغزّاوي للوطن والمسار والمنفى واستشهدت أحيانًا بأمثلة من رواياته الأخرى. وبعد ذٰلك انتقلت لعرض المبنى الفنّي وعن موضوع تداخل الأمكنة والأزمنة والشَّخصيّات والأحداث، فتوظيف الأسطورة وإيحاءاتها ثمّ عن لغة الغزّاوي في رواياته والمبنى المميّز، فقراءة سياسيّة لرحلة الفلسطيني.

هٰذه الدِّراسة عن رحلة الفلسطيني في أدب الغزّاوي، تشيد تلميحًا وتصريحًا، بإسهام الغزّاوي الغني، المتواصل، والمفتوح الذي لم يكن ليحجِّمه سوى موته المفاجئ.

فقد أسهم في سبيل رفع قضيّة الفلسطيني، تنفيذًا وتطبيقًا، إلى كلِّ المحافل والمواقع، وفي نقل مفهومها وتاريخها من الأجداد والآباء إلى الأبناء والأحفاد.

فرحلة الفلسطيني من وطنه إلى منفاه التي تضمَّنتها معظم رواياته، إن لم تكن كلُّها، إنّما هي عمل فريد ومساهمة بنَّاءة.

فرواياته من حيث مضمونها هي تأريخ لمعاناة شعبه، ومقاساة الواقع المرّ الذي عاشه الفلسطيني في رحلته. وهي وسيلة لتعريف الأجيال الحاضرة والمقبلة بما عانى وقاسى أجدادهم وآباؤهم. وهي الوسيلة أيضًا للحفاظ على استمراريّة الهويّة الوطنيّة للشَّعب الفلسطيني، وهي المرجع الذي يحنّ إليه الفلسطيني أينما وجد، ويحلم بالعودة إليه.

أمّا من حيث كتاباته ورواياته فقد أسهم فنّيّا أيضًا في الرّواية الفلسطينيّة، مبناها ولغتها ومضامينها، فرواياته إثراء للرّواية الفلسطينيّة، خاصّة في وصف وشرح الرحلة. وكذلك في لغتها المكثَّفة الشَّاعريّة المميّزة. لغة السَّرد المعبّرة التي استطاع استغلالها للتَّعبير عن مشاعره الوطنيّة والقوميّة الفلسطينيّة، وكذلك عن معنويّاته ونفسيّته. وأيضًا في مبنى رواياته المميّز في معظم الحالات، وفي تفنُّنه في تداخل الأزمنة والأمكنة والشَّخصيّات وتضمين الحكايات والأساطير حتّى أنّ رواياته القليلة تكاد تكون تعبيرًا تامًّا عن بنية الرّواية الفلسطينيّة وتعبيرها.